فقال له تاج الدين : يا مولانا أتعرف أحمد بن سعيد ؟ فقال : لا فقال المملوك أحمد بن سعيد . كتب إليه القاضي محيي الدين ابن عبد الظاهر من حلب كتاباً فأجاب القاضي تاج الدين : يقبل اليد المحيوية المجنوبة إلى كل قبلة المحتوية على الكرم الذي هو للكرام قبلة لا زالت مخصوصة بفضيلة الإعجاز والبلاغة التي كل حقيقة لديها مجاز والإحسان لا إحسان الذي يظن الإطناب والإسهاب في شكره وذكره من الإيجاز وينهي ورود مشرفته التي أخذت البلاغة فيها زخرفها وأشبهت الروضة الأنف منها أحرفها وأبانت عن معجزات البراعة ومثلت كيف ينفث السحر في تلك اليراعة وأبانت مجاري وأفردته بالرتبة التي لا يصل إليها زيد ولا عمرو وعلمته كيف يكون الإنشاء وإن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ووقف المملوك عليها وقوف من أقحمه الحصر وتطاول لمباراته فيها ولم يطل من بباعه قصر واستقدم قلمه جوابها فأحجم واستنطق لسانه ليعرب عن وصفها فأعجم وقال لحسنها الذي استرق القلوب : ملكت فأسجح وبلغ الغاية في عذر نفسه ومبلغ نفس عذرها مثل منجح ومن أين لأحد مثل تلك البديهة المتسرعة والروية التي هي عن كل ما يتجنب متورعة والمعاني التي تولد منها أبكار أو الغرائب التي لا يقبل الدر من بحرها إلا كبار أو الخاطر الذي يستجدي الفضلة من سماحته واللسان الذي يخرس الفصحاء عند فصاحته والقلم الذي هو مفتاح الأقاليم والطريق الذي من دل فيه ضل ولو أنه عبد الحميد أو ابن العميد أو عبد الرحيم والألفاظ التي تشرق بها أنوار المعاني فكأنها ليلة المقمرة واليد التي إن لم تكن الأقلام بها مورقة فإنها مثمرة .

ومولانا حرس الله مجد ... هذا قد أوتي ملك البيان .

واجتمع له طاعة القلم واللسان فخطب الأقلام بحمده قد أوتي ملك البيان واجتمع له طاعة القلم واللسان فخطب الأقلام بحمده على منابر الأعلام وقد أخذت له البيعة بالتقدم على كل فاضل ولو كان الفضل وأصبح محله منها الأسنى وأسماؤه فيها الحسنى وجاء من المحاسن بكل ما تزهى به الدول وأصبحت طريقته في الفنون كلمة الإسلام في الملل وعرف بالإشارة في حلب ما صنعت فيه الأيام وما أشجاه من ربعها الذي لم تبق فيه بشاشة بشام ووقوف مولانا في أطلالها وملاحظته الآثار التي أعرضت السعادة عنها بعد إقبالها وتفجعه في دمنها وتوجعه لتلك المحاسن التي أخذت من مأمنها وإنه وجدها وقد خلت من عراصها وزمت للنوى قلاصها وغربانها في رسومها ناعية وأيدي الرزايا بها لاعبة .

فلم يدر رسم الدار كيف يجيبنا ... ولا نحن من فرط الأسى كيف نسأل .

فنشكر الله بوقفه على تلك الدمن رقته التي قابل بها جفوة الزمن ورأى له هذا العهد الذي

تمسكت الآن منه بحسب ورعى له حق الذي جرى فقضى للربع ما وجب وشاق المملوك توقفه في رسومها واستراحه بنسيمها وسقياها بدمعه وتجديد العهد بمغناها الذي كان يراه بطرفه فأصبح يراه بسمعه ولقد يعلم ا أن الأحلام ما مثلتها العين إلا تأرقت ولا ذكرتها النفس إلا تمزقت ولا تخيلها فكرته إلا استقرت على حال من القلق ولا تمثلتها أمانيه إلا وأمست مطايا دمعه في السبق .

ما قلت إيه بعدة المتسامري ... ن الناس إلا قال دمعي آها .

على أنه قد أصبح من ظل مولانا في وطن ونساه أنه من ظعن ومن قطن ومشرف بخدمته التي تعلي لمن خدمها منارا واستعار من الأيام الذي أخذت منه درهماً وأعاضته عنه دينارا واصبح لي عن كل سفل بل شغل وأما الأشواق : .

فسل فؤادك عني ... يخبرك ما كان مني .

فما ذكرت حبيباً ... إلا وذلك أعني .

ولو أني استطعت غمضة طرفي ووصفت ما عسى أن أصف من الشوق كان الأمر فوق وصفي : .

وإني في داري وأهلي كأنني ... لبعدك لا دار لدي ولا أهل